المبحث الخامس

ماهية المـوت

«شغلتنى كثيراً قضية ماهية الموت، فجمعت كل الحقائق العلمية التى أثبتها العلماء.. تعبت كثيراً، لكن كل ما وجدت أن كل ما استكشفه العلماء من حقائق موجود فى القرآن الكريم.

موريس هنيفان : أستاذ البيولوجى
الولايات المتحدة الأمريكية

لقد شغلت ماهية الموت العديد من علماء الحياة، لكونها شيئاً معقداً صعب فهمه فى الماضى، وقد حاول الإنسان بأدوات العلم الحديث معرفة ماهية الموت، لكنه لايمكنه أن يعطل حدوثه لأنَّ ذلك يفوق القدرات الممنوحة له من الله.

كان الإنسان يعتقد قديماً أنَّ الموت يمثل حادث كلى يصيب الإنسان بكامل جسمه فقط، ومع تقدم العلوم البيولوجية، استطعنا أن نكتشف أن الموت يمثل الحدث الذى ينهى حياة الخلية، ويقضى على الأداء الوظيفى لها.

تبدأ أحداث موت الخلية بتراكم المواد التالفة والسامة فى الخلية نتيجة حدوث غزو ميكروبى خارجى لها، وعجز الجهاز المناعى للجسم عن مقاومة الميكروبات الغازية.

يمثل الموت بهذه الصورة تغييراً فى القدرة التركيبية والوظيفية للخلايا الحيَّة، وينعكس ذلك فى صورة احساس من الخلايا تجاه التغيرات الحادثة داخلها، والتى ستؤدى الى نهايتها، ومن ثمَّ يمكننا القول بأنَّ الخلية الحيَّة تتذوق أحداث الموت وتحس بها.

وهذا ما عبَّر عنه الحق فى قوله تعالى فى الآية (١٨٥) من سورة آل عمران:

﴿كلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

والربط فى الآية الكريمة بين النفس وتذوق الموت هو ربط بين الاحساس وأحداث الموت، والتعبير باسم الفاعل « ذائق» للفعل « ذاق» وليس اسم الفاعل « متذوق» للفعل « تذوق» انما يعنى أنَّ أحداث الموت تنبع من داخل الخلية، وليس من خارجها، وهذا ما وجدناه تماماً من خلال التحليلات الخلوية التى أثبتت وجود مايسمى بالاستعداد الخلوى للموت، بما يمكننا أن نسميه « بالميقات الزمنى للموت».

فمنذ النشأة الجنينية للخلايا، ترث كل خلية برنامجاً وراثياً يحدد نشاطها الحيوى ودورها، والميقات الذى تتوقف فيه عن أداء هذه الوظائف وهو يمثل موتها، ومما يؤكد ذلك حدوث موت لبعض الخلايا دون حدوث غزوميكروبى أحيانا، حيث تنشط الافرازات الخلوية، والتى تعمل على زيادة معدل الهدم عن معدل البناء وتحليل المركبات الحيوية الهامة بالخلية، مما يؤدى لموتها.

وهذا ما أشار اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى فى الآية (٤٩) من سورة يونس:

﴿فإذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

ويتضح التوقيت المحدد لانتهاء أحداث الحياة للخلية فى قول الله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة الرعد:

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

لقد ثبت من الناحية العلمية أنَّ توقف أحداث الحياة قد يكون فجائياً دون وجود مقدمات بيولوجية له، واذا بحثنا فى القرآن الكريم سنجده قد أشار الى هذا الموت الفجائى، وذلك فى قول الله تعالى حاكياً عما حدث للعبد الصالح فى الآية ٢٥٩ من سورة البقرة:

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والتعبير بحرف «الفاء» فى قول الله تعالى «فأماته الله» يعنى حدوث موت فجائى يؤدى الى توقف العمليات الحيوية داخل الخلية الحية، ولا يعنى حدوث موت للخلايا ضرورة تحللها، إذ يمكن من خلال عمليات الحفظ للخلايا منع تحللها، وهذا ماتشير اليه الآية الكريمة:

«قال لبثت يوماً أو بعض يوم».

وظن العبد الصالح بأنَّه لبث يوماً أو بعض يوم إنما بنى على رؤيته لحالته الطبيعية لم يحدث تحلل لخلاياه وأنسجته، وهذا يبين امكانية بقاء الخلايا بطبيعتها رغم موتها إذا حفظت من عوامل التحلل، وهو ما أمكن للإنسان عمله حديثاً باستخدام وسائل الحفظ النسيجية المختلفة.